

المقال السادس عشر

دقت ساعة العمل الشعبي *

هذه أسطر قليلة ، أندفع فيها للتعبير عن صدر يحنق وأحشاء تتلوى بآلام الخيبة والشلل والتردى مما وصلت إليه ما عرفت بمسيرة السلام لإيجاد حلول شاملة وعادلة للصراع العربى الإسرائيلى . أشعر بأن عمليات التفاوض مع الصهاينة قد أوشكت أن تصل إلى طريق مسدود ، إن لم تكن قد وصلت إلى ذلك فعلاً . وهل من دليل أو نذير أبلغ وأخطر من قرار الحكومة الإسرائيلية بالموافقة على الشروع فى بناء الحى الاستيطانى الجديد فى منطقة جبل أبو غنيم بالقدس العربية ، و فى غيرها من المواقع .

وقد سحب هذا القرار التحرك المباشر للبولدوزرات ، كما صحبه كذلك إنذار لرئيس السلطة الفلسطينية من نتيهاو رئيس وزراء

* مقال نشر فى أوائل ١٩٩٧ ، بمناسبة إعلان إسرائيل عن بناء مستعمرة جديدة فى جبل أبو غنيم فى القدس الشرقية .

إسرائيل بأن أية مقاومة لإقامة هذا الحى سوف تواجه بإطلاق النار إن اقتضى الأمر ، بل أنها قد تؤدي إلى وقف الانسحاب من الضفة ... وهل بعد هذا تحد وإرغام لقبول كل أمر واقع إسرائيلى ؟ .

يحدثم الغضب وأتساءل : أين قرارات مجلس الأمن ؟ وأين قرارات الجمعية العمومية للأمم المتحدة بإدانة تهويد القدس ، وعدم الاعتراف بها اتخذته وأعلنته بأن القدس بقسميها عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية ؟ وتتوارد الخواطر لأتساءل : أين تفسير اللورد كارادون صائغ القرار ٢٤٢ ؟ ثم أين خطاب شولتز وزير الخارجية الأمريكية للعاهل الأردنى الملك حسين فى يناير ١٩٨٣ ؟ وفى كل من هذين التقريرين تأكيد على أن مضمون الانسحاب من الأراضى المحتلة يمتد إلى الجبهات الثلاث فى سوريا ولبنان وفلسطين للأراضى المحتلة ، بما فيها القدس الشرقية .

وتجىء اتفاقيات أوسلو والقاهرة لتقرر أسس عملية السلام فى ضوء قرارات الشرعية الدولية ومحورها الأرض مقابل السلام ، وأن قضية المستعمرات وموضوع القدس مطروحان للتفاوض . وبين الخداع والمراوغة والكذب الإسرائيلى نصل إلى هذه اللحظة التاريخية الحاسمة والمنعطف الخطير فى عملية السلام . وهذه هى القدس العربية يتم تهويدها عمراناً وإنساناً ، ويتحقق الحلم الصهيونى . ويؤكد - دون تردد - ننتيا هو أن القدس عاصمة إسرائيل الموحدة الأبدية . ومن ثم تجسد أفعاليه المتعددة فى واقع القدس القانون الأساسى الذى قرره الكنيست الإسرائيلى بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٨٠ ، معلناً [القدس الموحدة بكليتها

هي عاصمة إسرائيل] . وفي ٢٠ أغسطس من نفس العام يصدر مجلس الأمن قراره رقم (٤٧٨) يشجب بأقوى عبارة ادعاءات إسرائيل حول القدس ، كما وردت في القانون الأساسي .

ومنذ أوسلو يتردد مبدأ الأرض مقابل السلام ، لكن الواقع الإسرائيلي يتمسك تارة بالسلام مقابل السلام ، أو السلام مقابل الأمن . لا يعلم أحد على التحقيق ماذا تضمه الدولة المحتلة للأرض العربية من مضامين حقيقية لتلك الشعارات ، بيد أن كل يوم يمر يعزز اقتناعنا بطبيعة إسرائيل العدوانية التوسعية العنصرية ، وأنها لم تتخل عن أطماعها في أرض إسرائيل الكبرى منذ أيام بن جوريون ، امتدادا حتى نتيهاو وأحلام الحرس الأقدم عزرا وإيزمان وأبا إيبان وإسحق نافون ممن نشاهد صورهم على شاشة التلفزيون في هذه الأيام .

قد انكشفت كل الأقنعة الإسرائيلية وخداع حلفائها . ولم تعد قرارات الإدانة أو الاستنكار الدولي مما تأبه له إسرائيل ، وقد غدت تصريحات الشجب وإظهار القلق أو عبارات التحذير كافية من قبل حكوماتنا من معوقات أو نكسات لمسيرة السلام ، بل وحتى ترعزعت مصداقية الاتفاقيات الجزئية المسكنة التي لا يتم تنفيذها مما يبشر بالوعد القومي . ولن تنطلي علينا دعاوى إزالة الحاجز النفسي ، أو بناء جسور الثقة ، أو خيارات الشرق أوسطية ، أو حوارات المثقفين الظاهرة والمستترة ، أو بتهمة أعداء السلام ، أو ضعف العقول كما يرى مؤرخنا الجليل .

نحن فى حاجة إلى بناء وتعزيز ثقافة المقاومة فى مواجهة قبول الأمر الواقع الذى يفرضه التهديد بالقوة الغاشمة ، تلك القوى الصهيونية داخل إسرائيل وخارجها ، ثقافة تعبى الطاقات الشعبية وطلائعها من حركة المثقفين فى الوعى بمخاطر الاستسلام للأمر الواقع ، بزعم أنه لا خيار أمامنا على أساس قدراتنا المحدودة ، مع أنه لم تختبر إمكاناتها الحقيقة فى مقاومة كل الصور والأحداث والرموز المثلة لمحاولات السيطرة والعدوان على حقوقنا المشروعة . إن نذر الكوارث غير مستبعدة نشير فحسب إلى حريق المسجد الأقصى عام ١٩٦٨ ، وإلى مذبحة الحرم الإبراهيمى ، وغير ذلك كثير من صور الطغيان والإذلال الإسرائيلى لنا ، ولما يمكن أن تزهد من أرواح أو تحطم من تراث .

لقد أصابنى الإرهاق ، ودعونى على الأقل أستمع إلى فيروز تصدح بصوتها العميق (يا قدس . . يا زهرة المدائن . . يا أرض السلام . .) ولعلكم جميعا تعيدون وتعيدون هذا النداء كل يوم وفى كل مكان فى هذا الأوان .